عقيدة الجهاد واستراتيجية الردع

لقد سبقت حكمة الله جل شأنه أن تكون الأمه الإسلامية أمة مجاهدة عزيزة الجانب ، ولم يرد لها أن تخضع ، ولا أن ترضى بالذلة ، ولا تستكين إلى هوان ، فأوجب عليها الجهاد فى سبيله ، وجعله الوظيفة الشريفة التى اختارها لأدائها كما يفهم من قوله تعالى : ﴿وجَاهِدُوا فى اللَّهِ حَقَّ جِهَاده هو اجْتباكُمْ﴾

[الحج : ٧٨]

و(اجْتباكُم) يعنى اختاركم ، فالاختيار هنا تكريم وتشريف لهذه الأمة التى جعلها الله فى خير منزلة بين الأمم فى قوله تعالى : ﴿كُنتم خيرَ أُمةٍ أُخرِجتْ للنَّاسِ تَأْمُرونَ بالمعروفِ وتَنهوْنَ عن المنْكرِ وتُؤْمنُونَ بالله﴾

[آل عمران : ١١٠]

وقد ربط الله سبحانه وتعالى الإيمان بالجهاد فى صورة محكمة متماسكة بحيث يزول الإيمان عند الفرار من الجهاد ، وعند النكوص عنه وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿يَأَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذا لَقيتُمُ الَّذينَ كَفروا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبارَ . ومَنْ يُوَلِّهِمْ يَومئذٍ دُبُرَهُ إلا مُتحرِّفًا لقتالٍ أو مُتحيزًا إلى فئةٍ فقد بَاء بغَضبٍ من اللَّهِ ومأْوَاهُ جَهنمُ وبِئْسَ المَصِيرُ﴾

[الأنفال : ١٥ ، ١٦]

ويقول جل شأنه : ﴿إنَّ اللَّه اشترى مِنَ المؤمنينَ أنفُسَهمْ وأموالَهُمْ بأنَّ لهمُ الْجنَةَ يُقَاتلونَ فى سَبيلِ اللَّهِ فيقْتُلُون ويُقْتَلونَ وعدًا عليه حقًّا فى التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ ومَنْ أَوْفَى بعهده من اللَّهِ فاسْتَبشِرُوا ببيعكُمُ الّذى بَايعتُم به وذَلك هو الفوزُ العظيمُ﴾

[التوبة : ١١١]

• وكان المسلمون الأولون يتسابقون إلى الجهاد ، ولا يعتذرون عنه أو يستأذنون النبى فى التخلف عنه كما يقول الله :

﴿لا يَسْتأْذِنُكَ الَّذينَ يُؤمنونَ باللَّه واليومِ الآخرِ أن يُجَاهدُوا بأموالهمْ وأنفسِهمْ واللَّهُ عليمٌ بالمتقينَ﴾

[التوبة : ٤٤]

أما المنافقون الذين لا إيمان لهم فكانوا يتحلون المعاذير فرارًا من الجهاد ويستأذنون فى النكوص عنه ، ويلجئون إلى الاستنامة عنه والفتور ، كما يقول الله فيهم : ﴿إنَّما يستَأْذِنُكَ الَّذينَ لا يؤمنون باللَّهِ واليوم الآخرِ وارْتابتْ قُلوبهُمْ فَهُمْ فى رَيْبِهمْ يترَدَّدُونَ﴾

[التوبة – ٤٥]

• وقال النبى ﷺ :

– «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم» (أخرجه البخارى)

– وعن أبى الدرداء رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : «من اغبرت قدماه للجهاد فى سبيل الله حرم الله سائر جسده على النار» (أخرجه الطبرانى)

– وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : «قيل يارسول الله أى الناس أفضل ؟

قال : «مؤمن يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله» (أخرجه البخارى)

– وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : «قلت يارسول الله أى الأعمال أفضل ؟

قال : «الإيمان بالله والجهاد فى سبيله» (رواه البخارى ومسلم)

– وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا تركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم» (أخرجه أبو داود) .

– وقال ﷺ : «الجهاد ماض إلى يوم القيامة» .

• والجهاد يكفل للأمة الإسلامية ما يسمى فى العصر الحديث «الكيان العسكرى للأمة» ، فقوة الأمم – فى الواقع – لا تقاس بقوة جيشها فحسب ، بل تقاس أيضًا بقوة كيانها العسكرى كأمة .

والكيان العسكرى للأمة يقوم على القاعدة العريضة التى تضم أبناء الأمة جميعًا حين يجمعهم إحساس عام بالخطر المحدق ، وإيمان راسخ وعقيدة قوية وشعور بالواجب والمسئولية ، وإيجابية وإخلاص فى العمل ، واستعداد لبذل الروح والدم فى سبيل الدفاع عن الحق والشرف والكرامة .

أى أن الكيان العسكرى للأمة يقوم على أساس الكيان العسكرى لكل فرد من أبناء هذه الأمة حين يملؤه إحساس صادق نابع من عقله وقلبه ، بأن شخصيته ووجوده ومصيره وآماله ترتبط إرتباطًا كليًا بتأهبه الدائم واستعداده بكل قدراته لرد العدوان ، عن أمته مهما تكن التضحيات ، وهذا ما كان عليه المسلمون الأولون ، إذ كان الشعب كله جيشًا مجاهدًا يؤدى كل فرد فيه ما يستطيع أداءه ويسهم الجميع فى سبيل توفير أسباب النصر ، فقد ملأت عقيدة الجهاد قلوبهم لأن الجهاد تكليف لهم جميعًا .

• كذلك أمر الله تعالى بإعداد القوة والمرابطة على النحو الذى يرهب الأعداء ويخيفهم من عاقبة عدوانهم ، فقال جل شأنه :

﴿وأعِدُّوا لهم مَّا استطعْتم مّن قوةٍ ومن رِّباطِ الخيل تُرهِبُونَ به عَدُوَّ اللَّهِ وعَدوَّكُمْ وآخرينَ من دُونهِمْ لا تعلمونَهُمْ اللَّهُ يعلَمهُمْ﴾

[الأنفال : ٦٠]

وقال النبى ﷺ : «نُصرتُ بالرُّعْبِ مَسِيرة شهر» (متفق عليه) ومن ذلك نستخلص أن الإسلام :

١ – يأمر بإعداد القوة ورباط الخيل .

٢ – ويجعل الهدف من إعداد القوة ورباط الخيل «إرهاب» الأعداء : أى أن الإسلام قد قيد الأمر بإعداد القوة والمرابطة بقوله تعالى ﴿ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ وذلك يفهم منه أن القصد هو إرهاب الأعداء وإخافتهم من عاقبة عدوانهم على بلاد الأمة .

ويفهم أيضًا من حديث الرسول ﷺ : «نصرت بالرعب مسيرة شهر» أن إظهار القوة للأعداء وإخافتهم ، يحقق النصر عليهم ويؤدى إلى تحقيق أهداف الرسالة الإسلامية أكثر من أية وسيلة أخرى .

هذه هى استراتيجية الردع الإسلامية ، وهى – كما هو واضح – «موقف مبدئى» للعسكرية الإسلامية منذ أربعة عشر قرنا ، وقد طبقها الرسول القائد ﷺ فى معارك عصر النبوة كما يتبين من تحليل الغزوات التى قادها عليه السلام بنفسه ، وبلغ عددها ثمانيا وعشرين غزوة ، فإننا نجد تسع عشرة غزوة (١٩) منها حققت أهدافها بدون قتال بسبب فرار الأعداء أمام قوة المسلمين ، ولم ينشب القتال إلا فى تسع غزوات فقط هى (بدر – أحد – الخندق – بنى قريظة – بنى المصطلق – خيبر – فتح مكة – حنين – الطائف) .

• والأمر الذى يستحق الذكر – ويثير العجب أيضًا – هو أن هذه الاستراتيجية الإسلامية فى الردع التى تكون أساسًا للنظريات الحربية فى الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا ، تعتبر نظرية العصر الذى نعيش فيه ، إذ يصفها خبراء الاستراتيجية العسكرية بأنها مفتاح الاستراتيجية فى القرن

العشرين ، وقد وصل إليها الفكر العسكرى العالمى بعد معاناة قاسية وطويلة فى حروب طاحنة اكتوى العالم بنارها ، وذلك ما يعبر عنه الجنرال أندريه بوفر بقوله :

«إن رجل القرن العشرين الذى تلاحقه مآسى الحربين العالميتين ١٩١٤ – ١٩١٨ ، ١٩٣٩ – ١٩٤٥ ، هذا الرجل المسلح بكل وسائل العلم الحديث ، ربما وجد أخيرًا الوسيلة لمنع وقوع مثل هذه المآسى ، وهى استراتيجية الردع» .

« وقد أصبح الردع فى عصرنا مقترنًا بأسلحة التدمير الشامل وخاصة الأسلحة النووية ، وأصبح تحقيق ما يسمى «بالتوازن الذرى» ، هو الشغل الشاغل للدول الكبرى فى الشرق والغرب ، وذلك بعد أن اقتنع الجميع بعدم جدوى الحرب وأن قيامها يعد عملية «انتحار» رهيبة ، لأن كلا من القوتين المتنافستين تملك القدرة على الانتقام والردع إذا ما تلقت الضربة المدمرة أولاً . يعبر عن ذلك قول مارشال الجو «تيدر : إن التسابق فى استخدام السلاح الذرى لن يكون صراعًا ، لكنه سيكون إنتحارًا مزدوجًا .

ولقد مهد التوازن الذرى وما لحق به من قوة الردع إلى محاولة منع التصادم ثم إلى ظهور سياسة الوفاق بين الكتلتين فى أوائل السبعينات من القرن العشرين وما يسمى باتفاقيات «سولت» لمحاولة وقف سباق التسلح فى مجال الأسلحة الاستراتيجية وما تلا ذلك فى أواخر الثمانينات من تقارب بين الشرق والغرب .

* ولابد لنا من إبراز ما تتميز به استراتيجية الردع الإسلامية من نوايا سلمية ومقاصد نبيلة لصالح البشرية :

١ - فاستراتيجية الردع المعاصرة مرتبطة كما قلنا «بالتوازن الذرى» ، فطالما هناك توازن بين القوتين العظميين فى القوى النووية ، فإن احتمال نشوب الحرب بينهما يكون بعيدًا ، لكننا لو تصورنا أن إحدى الكتلتين تمكنت من إحراز «تفوق ساحق» على الأخرى بحيث يختل هذا التوازن ، وهذا أمر وارد ومحتمل ، فإن المتوقع أن تندلع الحرب النووية فورًا بالنظر إلى ما يسود العلاقات الدولية من توتر وتناقضات فى المصالح .

أما الأمة الإسلامية فأمرها يختلف تمامًا ، ذلك أنها إذا تملكت القوة المتفوقة على خصومها حتى يصبح ميزان القوى فى جانبها ، فإن ذلك لن يغريها باستخدام تلك القوة ضدهم مادامـوا ممتنعين عـن العدوان عليها . أى أن الأمة الإسلامية «لا تتعدى حدود الردع» مادام يحقق هدفه وهو إخافة العدو ومنعه من استخدام القـوة ﴿تُرهِبُون به عَدُوَّ اللَّهِ وعدوَّكُم﴾ وذلك أمر بدهى ، لأن العدوان ليس غاية مـن غايـات الحرب فى الإسلام ولأن القصد مـن إعـداد القـوة هـو إرهاب العدو ليمتنع عن العدوان .

٢ - واستراتيجية الردع الإسلامية تنطوى على حقن الدماء لأن هدفها هو منع الحرب ، فالقوة الإسلامية حين تدخل الرهبة فى قلب خصومها وتخيفهم من عاقبة عدوانهم ، سوف تمنعهم من الحركة بالعدوان تحسبًا للمخاطر التى يعرضون أنفسهم لها ، وهذا ما يميز الاستراتيجية الإسلامية

عن غيرها ويكفى أن نتأمل نظرية فيلسوف الحرب (كلا وزفتز) عن معنى الاستراتيجية والتى تتضح من أقواله التالية :

– قد يتصور المحبون للخير أنه توجد طريقة بارعة لنزع السلاح الذى فى يد العدو والتغلب عليه دون إراقة كثير من الدماء ، وأن هذا هو الاتجاه السليم لفن الحرب ، تلك غلطة يجب أن نمحوها !!

– يجب أن نصم آذاننا عن القادة الذين ينتصرون دون إراقة الدماء !

– من الضرورى أن تكون فكرة «القتال» أساسًا لتفكيرنا !

٣ – واستراتيجية الردع الإسلامية تهيئ الفرصة الحقيقية بكل الحق والعدل لحل المنازعات والمشكلات بالوسائل السلمية دون اللجوء للحرب ، وهو ما لا تتسامى إليه كل اجتهادات القادة والزعماء والمنظمات الدولية قديمًا وحديثًا .. فإن الأساس الذى تقوم عليه هذه الاستراتيجية وهو إظهار القوة لمنع العدو من العدوان وعدم استخدام القوة إلا لرد الاعتداء ، يقنع الأمم الأخرى بالامتناع عن اللجوء إلى القوة لحل المنازعات ، وبأن طريق السعى لحل هذه المنازعات بالوسائل السلمية ليس مفتوحًا فحسب ، بل هو طريق مضمون النتائج لا تحيط به الشكوك ولا تنعدم به الثقة ، وليس فيه مخاطرة بالتنازل – تحت تهديد القوة – عن شىء من حق أو كرامة ، ولكن تحوطه كل معانى حب السلام والحق والعدل والتسامح وحسن النوايا وحب الخير للبشر أجمعين ، وتلك هى شريعة الإسلام التى نفت عن القوة كل معانى العدوان والغدر والظلم .

• ومن خصائص استراتيجية الردع الإسلامية تملكها لما يمنحها التأثير والفعالية ، فعلى الرغم من أن العسكرية الإسلامية ذات طابع دفاعى ، إلا أنها تملك القدرة الهجومية لاستخدامها على النحو الذى يحقق الردع المطلوب .

فإن اقتران الردع ﴿تُرْهِبُون به عَدُوَّ اللَّهِ وعدوَّكُمْ﴾ بالقوة والمرابطة ﴿من قوة ومن رباط الخيل﴾ يفهم منه بكل وضوح أنه لابد وأن تتوافر فى تلك القوة القدرة الهجومية التى تقنع العدو – حين يضع حساباته وتقديراته – بأنه سوف يكون هو الخاسر لو تحرك بعدوان .

وقد أبرز الاستراتيجيون هذا المبدأ فأكدوا : «أن العقيدة ذات الطابع الدفاعى البحت لن تكون لها إلا قيمة ضعيفة فى الردع إلا اذا توافرت لديها القوة الهجومية ، لأن مفتاح الردع هو القدرة على التهديد » .

وهذا هو ما يستوحى أيضًا من لفظ «قوة» الذى ورد فى الآية مطلقًا غير محدد ومن هنا فهو ينطوى على القوة الدفاعية والهجومية معًا ، وهو ما يستوحى كذلك من لفظ «الخيل» الذى ينطوى على مفهوم «الهجوم» مع ما يدل عليه من المعانى الأخرى الكثيرة .

• ونضيف إلى ذلك أن استراتيجية الردع الإسلامية تعتمد – فضلاً عن إظهار القوة – على الاستغلال الأمثل لعنصرين من أهم عناصر الاستراتيجية العسكرية وهما «الحركة والمفاجأة» .. وهذان العنصران يعبر عنهما «رباط الخيل» فى الآية الكريمة .. فالرباط : هو الحراسة والاستعداد للقتال الفورى عند الخطر ، والخيل : تعبير يشير إلى السرعة وخفة الحركة

والمباغتة ، وذلك ما يفهم أيضًا من قول الله تعالى : ﴿والْعَادِياتِ ضَبْحًا . فالْمُورِيَاتِ قَدْحًا . فالْمُغيراتِ صُبْحًا . فأثَرْنَ به نَقْعًا . فوسَطْنَ به جَمْعًا﴾ [العاديات : ١ - ٥]

ففى هذه الآيات يقسم الله تعالى بخيل الجهاد المسرعات التى يسمع لأنفاسها صوت هو الضبح من شدة الجرى ويتطاير الشرر من تحت حوافرها من شدة قدحها للأرض الحجرية والتى يهجم بها فرسانها على العدو فى وقت الصباح ليأخذوه على غرة ، والتى يكون من شدة جريها أن تثير غبار الطرق فى وقت الصباح فتدخل وسط جمع الأعداء فتشتته ، وتنطوى الآيات على تنبيه المؤمنين ليكونوا دائمًا على أهبة الاستعداد فيهابهم ويخشاهم من تحدثه نفسه بإضعافهم . وقد فهم بعض المفسرين المحدثين معنى أوسع من الخيل وهو كل ما يعدو ويغير ويثير الغبار ويرسل الشرر (كالدبابات مثلاً) .

• والجدير بالذكر أن الاستراتيجيين يؤكدون أن غرض الاستراتيجية الحق ليس «التغلب» على مقاومة العدو ، ولكن غرضها هو «التقليل من إمكان المقاومة» ثم يقررون أن الاستراتيجية تسعى دائمًا نحو إنجاز هذا الغرض باستغلال عناصر الحركة والمفاجأة كما يلى :

١ - فالحركة تقع فى «المحيط الطبيعى» إذ تعتمد على ظروف الزمان وعلى طبيعة الأرض (الطبوغرافية) وإمكانات النقل ، والمقصود بإمكانات النقل كل الوسائل والإجراءات التى يمكن للقوة بواسطتها أن تتحرك وتحتفظ بكيانها .

٢ – أما المفاجأة فتقع فى «المحيط السيكولوجى» إذ تؤثر على معنويات الخصم وعلى إرادته القتالية ، وهذه العوامل أصعب بكثير من العوامل الطبيعية السابق ذكرها .

• ثم إن هناك ما يسمى «بالتأثير المتبادل» بين عنصرى الحركة والمفاجأة .. فكل منهما يؤثر على الآخر : يمهد له الطريق العمل ويدعمه ويقويه ، وهنا تكمن العبقرية العسكرية فى استغلال هذين العنصرين الاستراتيجيين :

١ – فالحركة تولد المفاجأة .

٢ – والمفاجأة بدورها تمنح الحركة قوة دفع جديدة فتمهد لها الطريق للتغلب على مقاومة العدو بسرعة وفاعلية .

• ومما تتميز به استراتيجية الردع الإسلامية أنها لا تستهدف ردع العدو الخارجى الظاهر فقط ، بل تستهدف أيضًا ردع أعداء الأمة من القوى المضادة التى تعمل ضدها فى الخفاء ، والتى قد يكون خطرها – إذا غفلت عنها الأمة أو لم تتصد لها – أفدح بكثير من خطر العدو الظاهر .

ذلك هو ما يفهم بوضوح من نص الآية الكريمة : ﴿وأَعِدُّوا لهم ما استطعتُم من قُوة ومن رباطِ الخيل تُرهِبُونَ به عدوَّ اللَّهِ وعَدوَّكُمْ وآخرينَ من دُونِهِمْ لا تعلمونَهُمُ اللَّهُ يعلمهُمْ﴾ ... إن «عدو الله» واضح ، وهو كل خوان أثيم يعتدى على حرمات الله ويجاهر بمعصيته .. و «عدوكم»

واضح أيضًا ، وهو عدو المسلمين وهو كل من يسيء إلى عقيدتهم أو إلى أوطانهم أو إلى حقوقهم المقدسة .

أما الفئة الثالثة وهى المعبر عنها بقوله جل شأنه : ﴿وآخرينَ من دونهِمْ لا تعلمونَهُمُ اللَّهُ يعلمهُمْ﴾ .. فقد فسرها السابقون بالمنافقين الذين يلبسون ثوبًا ظاهره الرحمة ، وباطنه العذاب ، إلا أنه ينطوى بلغة العصر على كل القوى المضادة التى تحقد على الأمة وتنفث سمومها فى الخفاء ، وتروج الشائعات ، وتثير الفتنة وتغرى بالسلبية والفساد وتقتل الإرادة والإيجابية ، وتهدم الأخلاق . ومن هذه الفئة من يكون داخل البلاد الإسلامية وبين صفوف أبنائها ، ومنهم من يكون خارجها ، يدبر ويخطط ويتحرك بكل أساليب الدعاية والحرب النفسية ، من أجل ذلك فقد اشتملت استراتيجية الردع فى الإسلام على تلك الفئة من الأعداء الخفيين وأوجبت على الأمة الإسلامية إعداد كل وسائل القوة التى تردعها ، ومن ذلك مثلاً أساليب غرس وتنمية وعى الأمن ووسائل مقاومة الجاسوسية وغيرها .

وهكذا يتضح لنا أن استراتيجية الردع ، تحقق للأمة الإسلامية الأمن والعزة ، فالإسلام إذ يوجب عليها أن تعد ما تستطيع من قوة ، يستهدف أن تصبح الأمة الإسلامية شديدة الشوكة ، قوية البأس ، مرهوبة الجانب من قبل الأعداء ، قادرة على الدفاع عن نفسها وحماية حدودها ، ومواجهة كل من يعتدى على حرماتها أو يقف فى سبيل دعوتها ، لتكون أمة عزيزة لها سيادتها وكرامتها ، ولها وزنها وقيمتها فى هذه الحياة ، وليطمئن كل واحد فيها على نفسه ، ويأمن على ماله وعرضه.